﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف: 80]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

قـومُ لـوطٍ أقـربُ الأقوامِ إلى ثمودَ مكانًا وزمانًا

لمّا أتمَّ سبحانه ما وفّى بمقصدِ هذه السّورة في هذا السّياقِ من قصَّتِهم، أتبعَه مَن بعدَه ممَّن تعرفُه العربُ كما فعل فيما قبلُ[1]، وناسبَ ذكرُ قصَّةِ لوطٍ ﷺ بعد قصَّةِ صالحٍ ﷺ قُربَ المكانِ، فثمودُ أقربُ من عادٍ إلى قومِ لوطٍ، وقربُ الزَّمانِ كذلك، وقد بُنيت سورةُ الأعرافِ في سردِ القَصص على التَّوالي الزَّمانيّ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: يدلُّ الفُحشُ على قُبحٍ في شيءٍ وشناعةٍ، ويكون مكروهًا، فيوصفُ به كلُّ ما تجاوزَ قدرَه بحيثُ بلغَ النّهايةَ في القبحِ منَ الأفعالِ والأقوالِ، والفاحشةُ الشَّيءُ الغليظُ القبيحُ الّذي يكونُ غايةً في القبحِ. وأفحَشَ الرَّجُلُ أتى بالفُحشِ؛ وهو القَولُ السَّيِّئُ، وأكثرُ ما ترِدُ الفاحشةُ في الاستعمالِ القرآنيّ بمعنى الزِّنا، ومعنى الفاحشة في الآية إتيانُ الذّكور في الأدبار[2].

2) ﴿سَبَقَكُم﴾: السّبقُ هو التّقدّمُ في السّير، ويدلُّ السّبقُ على التّقدّمِ في الجري، وفي كلِّ شيءٍ، ويدورُ المعنى المحوريّ للسّبقِ على تقدُّمِ الشّيء من بين ما حوله في قوّةٍ وجِدٍّ، بحيث يكونُ مُنفرِدًا في تقدُّمِه، ويصلُ إلى المطلوبِ قبلَ وصولِ غيرِه، ويُقال: سابَقتُه فسَبَقتُه، ومنه: له سابِقةٌ في هذا الأمرِ إذا سَبَقَ النّاسَ إليه، وأسبَقَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/451.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيّوميّ، المصباح المنير: (فحش)، وابن جرير، جامع البيان: 12/547، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/424.

القومُ إلى الأمر وتَسابَقوا: بادَروا، ففي السّبقِ معنى المبادرة إلى التّقدّم[1]، والمقصودُ في الآيةِ هو السَّبقُ بمعنى الابتداعِ السُّلوكيِّ جملةً، فلم يأتِ أحدٌ منَ العالمين بمثل هذا قبْلَهم؛ فأصبحوا أئمّةَ فحشٍ لمن بعدَهم.

3) ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: جمعُ العالَم، وهو إمّا أن يكونَ اسمًا لذوي العِلم منَ الملائكةِ والثّقلين (الجنّ والإنس)، أو لِما عُلِمَ به الخالقُ، فيشملَ كلَّ ما خلقَ اللّه، والمرادُ بالعالمين هنا جميعُ الأقوام الّذين كانوا قبلهم.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

السَّبقُ إلى المنكَرِ الغريبِ طريقٌ إلى الهلاكِ قريب

واذكر أيّها الرّسول لوطًا حينَ قال لقومِه مُنكِرًا عليهم: أتفعلونَ الفعلةَ الفاحشةَ ما سبقكم بفعلها أحدٌ منَ النّاس، إنَّ إتيانَ الذُّكورِ دونَ الإناثِ منَ الفواحشِ الّتي ابتدعَها قومُ لوطٍ، ولم يسبقْهم بها أحدٌ منَ الخلقِ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ العطفِ بالواو، وبيانُ مناسبتِه في ﴿وَلُوطًا﴾:

العطفُ إمّا مِن عَطفِ المفردات، وإمّا مِن عطفِ القصّةِ على القصّةِ

يُحمَلُ العطفُ إمّا على تقدير: (أرسلنا) فيكونُ المعنى: (وأرسلنا لوطًا)؛ ليكونَ على نسقِ ما تقدّم، فيكونَ قد عَطَفَ ﴿وَلُوطًا﴾ على ﴿نُوحًا﴾ [الأعراف: 59] في قوله: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ [الأعراف: 59]، ليكونَ من عطفِ بعضِ مفرداتِ الجملةِ على بعضٍ؛ لمناسبةِ معنى الإرسال بين المعاطيف؛ أي: لقد أرسلنا نوحًا ولوطًا، وإذا كان بتقدير: (اذكر) فيكونُ من عطفِ جملةِ القصّة على القصّة، وذلك أنَّ ذكرَ الأنبياء لتثبيت قلبِ الرّسولِ ﷺ بتسليتِه ممّا يقاسي عن قومه[3]؛ أي: واذكر قصّةَ لوطٍ مع قومِه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبق).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/547، ونخبة من أساتذة التّفسير، التفسير الميسر، ص: 160.
(3) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/457.

نُكتةُ حذفِ العاملِ في قولِه تعالى ﴿وَلُوطًا﴾:

تـنـوُّعُ المعـاني تابعٌ للتَّقديرِ، والتَّقديرُ قائمٌ عـلى اتِّـسـاعِ النَّصِّ ومُرونةِ دلالتِه

العاملُ المحذوفُ إمّا أن يكونَ: (أرسلنا)، ولمّا كان ﴿إِذْ﴾ ظرفًا مُتعلِّقًا بـ(أرسلنا) المُقدَّرِ، كان المعنى: أرسلناه وقتَ قال لقومه، فجُعِلَ وقتُ القول ظرفًا للإرسال مع أنَّ الإرسالَ قبلَه؛ للإشعارِ بمبادرةِ لوطٍ عليه السلام بدعوة قومِه إلى ما أرسلَه اللهُ به، واقترانُ وقتِ الإرسال بوقتِ قولِه اقترانٌ عُرفيٌّ بمعنى شدَّةِ القربِ بأقصى ما يُستطاعُ من مبادرة التّبليغ، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بالظّرفِ الزّمانَ الّذي أُرسِلَ فيه لوطٌ، وليس وقتَ القولِ نفسِه، فيكون المعنى: وأرسلنا لوطًا في زمنٍ قال لقومه.

وإمّا أن يكونَ منصوبًا بتقدير: (اذكر)، فيكونَ الظّرفُ ﴿إِذْ﴾ بدلَ اشتمالٍ من لوطٍ، والمعنى: اذكر يا محمّد ﷺ لوطًا، اذكرْ وقتَ قولِه لقومِه، وتعظيمُ الوقتِ لتعظيم ما وقع فيه[1]، والقصدُ من تقدير (اذكر) الإيذانُ بأنَّ فعلَهم قبيحٌ شنيعٌ سواء كانِ بإرسالِ رسولٍ أم بغيرِ إرسالِ رسولٍ.

بلاغةُ استعمالِ ﴿إِذْ﴾ في جملة ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾:

في قـصـصِ الغابرين عِبرةٌ وعِـظـةٌ وتنبيهٌ للحاضرين

التّعبيرُ بـ ﴿إِذْ﴾ يدلُّ على عِظَمِ شأنِ الأمر، فإنَّ تعظيمَ شأنِ الوقتِ تعظيمٌ لمظروفِه؛ أي: ما يقعُ فيه، ففيه إشعارٌ بتعظيم قولِ لوطٍ لحاجةِ القومِ له، فإنَّ الوقتَ عنصرٌ عظيمٌ من عناصرِ نجاةِ الأممِ والأقوام، فإنْ فاتَ لم يُعوَّض، وفي تَكرارِه في القرآنِ تنبيهٌ للمخاطَبين بأنَّ الإنذارَ اليومَ سيكون في الزَّمنِ القادم عِبرةً لغيرِكم بأداةِ ﴿إِذْ﴾ وأنتم مظاريفُها! فهي إنباءٌ عمّا مضى؛ للتَّنبيه والاعتبارِ فيما يكون وسيكون.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/125، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/22، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/370، والطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/457، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/229.

فائدةُ عدمِ ذكرِ أخوّةِ لوط لقومه:

الدَّعوةُ لا يُشترطُ فيها الانتسابُ العشائريُّ، بل الانتماءُ الإنسانيُّ

لم تذكرِ الآيةُ أُخوّةَ لوطٍ ﷺ لقومِه كما في شأنِ بقيّة الرُّسُلِ، ففي هودٍ ﷺ قال: ﴿*وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: 65]، وفي صالحٍ ﷺ قال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: 73]، وفي شعيبٍ ﷺ قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85]، بينما قال جلّ شأنه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾؛ ذلك لأنَّه لم يكن هناك موجبٌ لذكرِ الأخوّةِ، فلم يكونوا مؤمنين لتكونَ أخوّةُ الإيمان تجمعُهم، كما أنّه لم يكن من قبائلهم، فلم يكن بينه وبين القوم الّذين نزل فيهم قرابةُ نسبٍ تُشبَّهُ بعلاقات الأخوَّة[1]، وبانتفاءِ هذين السَّببين، يمتنعُ ذكرُ الأخوَّةِ، وفي ذلك فائدةٌ عظيمةٌ، أنَّ انتفاءَ الأخوَّةِ، لا يعني انتفاءَ الانتماءِ إلى المعيشةِ والجوارِ؛ ولذلك قال: ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾، وهو سببُ الدَّعوةِ، وبه يستبينُ أنَّ الدَّعوةَ لا يُشترطُ فيها الانتماءُ العشائريُّ، أو القبليُّ، أو العقديُّ، بل عمومُ الانتماءِ ولو بالجوارِ والمعايشةِ، وهذا أصلٌ عظيمٌ من أصول الدَّعوةِ إلى دينِ اللّه تعالى.

معنى اللّامِ في قوله تعالى ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾:

عـدمُ تقصيرِ رُسُلِ اللهِ في تبليغِ دعوةِ اللهِ إلى أقوامِهم

أفادتِ اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ التَّبليغَ؛ أي: تبليغَ لوطٍ قولَهُ لقومِه، وهي لامُ تعديةِ فعلِ القولِ إلى قومِه.

فائدةُ إضافةِ (قوم) إلى الضَّميرِ العائدِ على لوطٍ ﷺ:

المصلحُ ينخرطُ في مجتمعِه، ولا ينزوي بدعوتِه عن قومِه

ذكرُ لفظِ ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ يدلُّ على أنَّه ليس دخيلًا بينهم، بل كانَ يعيشُ معهم مُنذرًا لهم، ولكنَّهم انحرفوا عنِ الإنسانيَّة[2]، ففيه أنَّ الصّالحَ قد يعيشُ في مجتمعِ الشَّواذِّ، ويُحافظُ على صلاحِه بإصلاحِهم، ونهيِهم عنِ المنكرِ الشّاذِّ، وأنَّ السَّبيلَ إلى الإصلاحِ هو المبادرةُ إلى الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عنِ المنكرِ، لا تركُهم وشأنَهم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/229.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2892.

ولا معاداتُهم دون دعوةٍ ورفقٍ بهم، فإنَّ المصلحَ ينخرِطُ في مجتمعِ الفسادِ مُصلِحًا، ولا ينزوي عنهم مُجحِفًا.

سِرُّ البَدءِ بالنّهيِ عنِ الفاحشةِ دونَ الأمر بعبادة الله وتوحيده:

الـشُّـذوذُ لا يصحبُه اعتقادٌ قويمٌ ولا سلوكٌ مستقيمٌ، فاستئصالُه ركنُ العملِ وقاعدةُ الأملِ

لمّا كانَت فاحشةُ قومِ لوطٍ أشنعَ الشّنعِ بعدَ الشِّركِ باللّهِ، واختُصَّ بمشاركتِه للشِّركِ في أنَّه لم يحلَّ في ملَّةٍ منَ الملِ في وقتٍ منَ الأوقاتِ ولا مع وصفٍ منَ الأوصافِ، ناسبَ أن يقتصرَ في هذا المقامِ على الإنكارِ على فعلِهم الفاحشةَ، فكأنَّ نهيَهم عنها أمرٌ بعبادة اللّه وتوحيدِه، فإنَّ تركَهم لها رجوعٌ إلى الفطرةِ السَّليمةِ وإلى عبادةِ اللّهِ وحدَه، أو يكونُ الكلامُ على طيِّ الأمرِ بعبادةِ اللّهِ؛ إيجازًا في الكلامِ، فاقتصر على ذكرِ الإنكارِ على فعلِ الفاحشةِ؛ لأنّه أمرٌ فظيعٌ عظيمُ الشَّناعةِ شديدُ العارِ والفُحشِ؛ لنفرةِ كلِّ طبعٍ سليمٍ عنه، فأنكرَ عليهم أقبحَ الفعلِ وأشنعَه زيادةً على شركِهم باللّه.

وفيه أنَّ جميعَ المعاصي تُسبَقُ بالدَّعوة إلى التَّوحيدِ والأمرِ بعبادةِ اللّه، ولكنّ هذا الفعلَ الشّاذَّ يُبدأُ بالنَّهي عنه؛ لأنَّه شرٌّ أخلاقيٌّ، وفسادٌ فطريٌّ، لا يستقيمُ معه شيءٌ، وهو قرينُ الشُّذوذِ الفكريِّ، والاجتماعيِّ، والأسريِّ، والاقتصاديِّ، والأخلاقيِّ، والدّينيِّ، فلا يستقيمُ معه سلوكٌ ولا اعتقادٌ، فاستئصالُه أصلٌ لا يُحادُ عنه، وركنٌ لا يُترك.

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيّ في جملة: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾:

الـجـمـعُ بـيـنَ التّوبيخِ والنّهيِ عنِ الفاحشة

وردَ الاستفهامُ بمعنى الإنكارِ، بغرضِ إيقافِهم على حالتِهم، وتوبيخِهم على صَنيعِهِمْ، والتَّشنيعِ على فعلتِهم المتمادية في القبحِ، ولمّا كان الاستفهامُ الإنكاريُّ مُضمَّنًا معنى النّهي عنِ الفعل دلَّ على أنّ لوطًا ﷺ وبّخَهم على فعل الفاحشةِ ونهاهم عنها[1].

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/386، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/424، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/310، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/22.

نُكتةُ اختيارِ مُفردةِ الإتيانِ، والإسنادِ إلى واو الجماعة:

اختارَ النَّظمُ مُفردةَ الإتيانِ في قولِه تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ لِما فيه من معنى الإقبالِ على الشَّيء، وأُسندَ إلى ضمير الجمعِ؛ للإشعار بأنَّ الفعلَ هو الغالبُ في القومِ، ففيه أنَّ القومَ مقبلون بكليّتهم على هذا الفعلِ الشَّنيع، فهو تصويرٌ لبشاعةِ حالةِ الإقدامِ تلك.

تصويرُ مجتمعِ الشَّواذِّ في إقدامِهم على صنيعِ القُبحِ وعملِ الرَّذيلةِ

من ناحية أخرى، التَّعبيرُ بالإتيانِ في قولِه: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ إمّا أن يُحملَ على أنَّه كنايةٌ عن إتيانِ الذُّكور، وهي كنايةٌ مشهورةٌ في الاستعمال وفي العرف، ومثله قوله فيما يأتي: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾[1].

صحَّةُ حملِ الكلامِ على الكنايةِ والاستعارةِ

وإمّا أن يُحملَ على الاستعارةِ بتشبيهِ القيامِ بفعلِ الشُّذوذِ بالإتيانِ، فهو استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ، وجاءَ بهذا التَّعبيرِ المجازيِّ؛ للطفه وجمالِه، والمعنى: أتعملون الفاحشةَ.

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾:

تحتملُ (أل) أن تكونَ للعهدِ العلميِّ؛ للإيذانِ بأنَّ هذا الفعل مَعهودٌ قُبحُهُ، ومَركوزٌ في العُقولِ فُحشُهُ، وتحتملُ أن تَكونَ للجنسِ على سبيل المبالغةِ كأنَّهُ لِشدَّةِ قُبحِهِ جُعِلَ جَميعَ الفَواحِشِ، وهو الظّاهرُ لِبُعدِ العَربِ عَن ذلك البُعدَ التّامَّ[2]، وتحتملُ أن تكونَ (أل) لكمالِ الوصفِ؛ أي: لجمعِه أوصافَ الفحشِ، بمعنى: أتاتون الفاحشةَ الّتي جمعَت كلَّ أوصافِ الفُحشِ.

إذا ارتكزَ قُبحٌ في العقولِ لم تزحزحْه الفحول

نكتةُ الاستعارةِ التَّصريحيّةِ في لفظِ ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ استعارةٌ، وذلك بتشبيه الرِّجالِ المأتيّين من أدبارِهم بالفاحشةِ؛ بدليلِ قولِه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾، على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيّة الأصليّة، ونكتةُ ذلك: أنَّ

لفظُ الفاحشةِ أوقعُ في النُّفوسِ أثرًا، وأوجزُ خبرًا

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/454، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/231.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/98.

الاستعارةَ أبلغُ منَ الحقيقةِ، فإنَّ التَّعبيرَ عن إتيانِ الرِّجالِ بإتيانِ الفاحشةِ أوقعُ في النُّفوسِ أثرًا، وأدلُّ على المرادِ خبرًا، وفي الاستعارة منَ التّبشيعِ والتّشنيعِ على القائمين بهذا الفعل ما لا يخفى، فإنَّ تشبيهَهم بالفاحشة من دواعي النُّفرةِ منها، فإن هم أصرّوا فهم الفاحشةُ بعينِها حقيقةً لا مجازًا.

الاستعارة التَّهكميَّة في جملة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾:

لمّا كان السَّبقُ يُستعمَلُ غالبًا لإحراز الفضلِ والتّبريزِ، وكانَ فيه معنى الجدِّ والاجتهادِ والحرصِ على التّقدّمِ والقوّةِ في الفعل، كما أنَّ فيه معنى التّفرّدِ، ويُستعمَلُ مجازًا بالاستعارة لمعنى التّقدّم في الزّمن[1]، دلَّ على أنَّ قولَه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ استعارةٌ تبعيَّةٌ تهكّميَّةٌ، وذلك بتشبيه سبقهم إلى الفاحشةِ بالسَّبقِ إلى الخيراتِ، ومن هنا أتى معنى التَّهكُّم، كمَن يُشبِّهُ البخيلَ بحاتمٍ؛ فيقول: (أتى حاتم)، والآتي من اتَّصفَ بالبُخلِ، فتشبيهُ النَّقيضِ القبيحِ بنقيضِه الحسنِ تهكُّمٌ؛ وذلك للإشعار بأنّهم كانوا يعدّون فعلَ الفاحشةِ القبيحةِ فضلًا ومزيّةً، وأنّهم كانوا يحرصون عليها بجدٍّ واجتهادٍ، وكانوا يبادرون إلى فعلِها مُنفردين بها من سائر العالمين، إذ لا يقصدُ بمثل هذا التّركيبِ أنّهم ابتدأوا مع غيرهم في وقتٍ واحدٍ، ففيه مبالغةٌ في التّوبيخ والتّعجيب من حالِهم وتقبيحِه[2].

الشُّذوذُ الأخلاقيُّ يتبعُه شذوذٌ ذوقيٌّ وفكريٌّ في عدِّ القبيحِ جميلًا والجميلِ قبيحًا

توجيهُ الفصلِ لجملة: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾:

تحتملُ جملةُ ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أربعةَ احتمالاتٍ في سبب فصلِها[3]:

تلتقي التّوجيهاتُ في معنًى كليٍّ يُعيِّن الذَّمَّ، ويُحدِّدُ الذَّنبَ

(1) الرّاغب، المفردات: (سبق)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/230.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/125، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/309، والبيضاوي: أنوار التّنزيل: 3/22، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/371، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/230.

الأوّل: أن تكونَ استئنافًا نحويًّا؛ لتقريرِ الإنكارِ وتثبيتِه، كأنَّه وبَّخهم أوَّلًا بإتيان الفاحشة، ثُمَّ باختراعِها، فإنَّه أسوأُ.

الثّاني: أن تكونَ صفةً مقيِّدةً للفاحشة، على اعتبار أنَّ الفاحشةَ اسمُ جنسٍ، فليس المقصودُ منها نوعًا معيَّنًا؛ ليكونَ على سبيل تنوّعِ الذّمِّ، فيكونَ قد ذمّهم على فعل الفاحشةِ وعلى تفرُّدِهم بها.

الثّالث: أن تكونَ حالًا من ضمير (تأتون)، والمعنى: أتاتون الفاحشةَ حالَ كونكم ما سبقكم بها من أحدٍ منَ العالمين، فيكونَ الإنكارُ على فعلِهم الفاحشةَ في تلك الحال، ولا يقصدُ بالحال هنا أن تكونَ مقيِّدةً للإنكارِ بل يُقصدُ بها بيانُ الواقِع لتأكيدِ الذّمِّ وتقريرِه.

الرّابع: أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا جوابًا لسؤال مُقدَّر، كأنَّهم قالوا: لم لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحدٌ، فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به.

وجميعُ هذه التَّوجيهاتِ تلتقي في معنًى كليٍّ واحدٍ، وهو ذمُّ إتيانِ الفاحشةِ مرَّتين، مرَّةً بإتيانِها، والأخرى بأنَّهم سبقوا جميعَ العالمين بها، فكانوا مهمازَ سوءٍ، ولعنةَ ملعونٍ، لا يُقاربُهم إلّا شيطانٌ، ولا يُقارِنهم إلّا إبليس.

إيثارُ المجازِ بالحذفِ:

المعلومُ القبيحُ يُضمَرُ ذكرُه تشنيعًا على مرتكبِه

في الكلامِ مجازٌ بالحذفِ، حيث قال جلّ شأنه: ﴿بِهَا﴾ مع أنَّ التّقديرَ ما سبقكم بإتيانِ الفاحشةِ من أحدٍ منَ العالمين، لقرينةِ السّياق، وللاقتصار في الذِّكرِ على مَوضعِ الحاجةِ تلطُّفًا في العبارةِ، وإيجازًا في المبنى، وهذا هو مُقتضَى الظّاهرِ والحالِ.

فائدةُ تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿بِهَا﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهَا﴾ على الفاعل ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ في قوله جلّ شأنه ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ لتخصيصِ سبْقِهم بها، وللاهتمامِ

بِعِظَم قُبحِها وشناعتِها، ولمّا كان الجارُّ والمجرورُ على معنى الحاليَّة، فالمعنى ما سبقَكم مُلتبِسًا بالفاحشةِ أحدٌ منَ العالمين.

أسوأُ منَ القُبحِ أن يكون صاحبُه أوّلَ من يبتدعُه ويفعلُه

دلالةُ ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾:

لمّا كان لفظُ ﴿أَحَدٍ﴾ من أكثر النّكراتِ شيوعًا، دلَّ نفيُه على غاية المبالغةِ في النّصِّ على استغراقِ العموم، والمعنى: ما سبقكم بها أيُّ واحدٍ منَ العالمين، وأفاد دخولُ ﴿مِنْ﴾ عليه المبالغةَ في تَأكيدِ النَّفْي.

استغراقُ العُمومِ دون تخلُّفِ أحدٍ

معنى التَّعريفِ وسرُّ الجمعِ في لفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

المقصودُ بالعالمين جميعُ الإنس والجنِّ والحيوان. ومعنى التَّعريفِ في كلمةِ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الاستغراقُ، بمعنى استغراقِ جميعِ العالمين، وعُبِّرَ به دونَ التّعبيرِ بلفظٍ آخر؛ لتعظيم قبحِ فعلِهم؛ ليدخلَ تحت كلمةِ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلُّ العالمين منَ الإنس والجنّ والحيوان والطّير والهوامِّ، وهذا استغراقٌ شموليٌّ بديعٌ، ينفِّرُ من صنيعِ قومِ لوطٍ، وهذا أبلغُ من أن يقولَ: (منَ النّاس)، وهذا مُقتضَى الظّاهرِ، وحملُها على معنى (النّاس)، كما ذهبَ إليه بعضُ المفسّرين[1]، مجازٌ بإطلاقِ الكلِّ وإرادةِ البعضِ، ولا ضرورةَ له، إذِ السّياقُ يقوّي أن يكونَ اللَّفظُ على حقيقته.

المبالغةُ في التّنفيرِ من هذا الفعلِ الشّنيعِ المُستنكَرِ عند جميعِ الخلْقِ

وأفادَ التَّعبيرُ بصيغةِ الجمعِ المبالغةَ؛ للدّلالةِ على نفيِ أن يكونَ أيُّ أحدٍ من جميعِ العالمين سبقَهم إلى فعل تلك الفاحشة[2].

موقعُ جملةِ ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ من النّظم:

جاءَ في هذه الآية قولُه تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقال في سورة النّمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النمل: 54]، ومناسبةُ مجيءِ قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في سورة الأعراف أنّه لمّا

اجتمع في هذه الفاحشةِ فحشُ الفعلِ وابتداعُه

(1) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/458.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/99.

تقدّمَ في الأعراف من ذكر مرتكَباتِ الأمم المُكذِّبين لرُسلِهم؛ أي: قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ، وخُصَّ بالذِّكر أقبحُها، قيل لقوم لوطٍ ﷺ: إنَّ هؤلاء الأقوامَ لم يسبقوكم إلى ما أنتم عليه، ناسبَ ذكرُ الأمم المُكذِّبين قبلَهم تقريعَ هؤلاء بكونهم أوّلَ مَن فعلَ تلك الشَّناعة، وأنّهم لم يسبقْهم أحدٌ مِنَ العالمين، فكان توبيخُهم على الفعلِ وعلى السّبقِ معًا.

ولمّا لم يتقدّمْ في سورةِ النّمل تفصيلُ أحوالِ الأمم المُكذِّبين، وأخذِهم، ولم يذكرْ ذلك كما في سورة الأعرافِ، عدلَ عن توبيخهم بما وُبِّخوا، حيث ذكرَ مَن كان قبلَهم، إلى ضربٍ آخرَ مِنَ التّوبيخِ من بيانِ شنيعِ المرتكَبِ في فعلهم، وأنّه غيرُ خافٍ على كلِّ مَن له عقلٌ أو بصرٌ يبصرُ به، كما أنَّ الّذي في سورة النّمل فيه حثٌّ على النّظر والإبصار إلى آيات الله مِن أوّلِ السّورة في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [النمل: 1]، وقولِه في قصّة موسى ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل: 13]؛ أي: بيّنةً واضحةً، وقولِه في قصّة صالح: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ [النمل: 51]، ولهذا أعقبَ قولُه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤﴾ [النمل: 54] توبيخَهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ [النمل: 55]؛ للإيذانِ بقُبح هذا التَّعامي عن إبصارِ الأمورِ الواضحةِ.

ورؤوسُ الآي في سورة الأعرافِ كلّها أسماء ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ﴿جَٰثِمِينَ﴾ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿كَٰفِرُونَ﴾ ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿مُفْسِدِينَ﴾، والّذي في سورة النّمل وافق ما قبلها مِنَ الآياتِ، وكلُّها أفعالٌ ﴿تُبْصِرُونَ ۝٥٤﴾ [النمل: 54] ﴿يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾ [النمل: 53] ﴿تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [النمل: 93][1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 206 - 207، والكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 124 - 125.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»